

تحليل سوسيولوجي للمدرسة الجزائرية وعلاقتها بيئة التفاعل الاجتماعي

أ.د. الطيب الصيد - جامعة سوق أهراس - الجزائر

Résumé:

L'école se trouve au centre de la structure social de chaque société, elle préoccupe l'intention de plusieurs sociologues contemporains. Elle se fait l'objet majeur des analyses sociologiques.

P. Bourdieu prolonge cette réflexion dans sa théorie de reproduction sociale, où il s'interroge sur ce que présente l'école, dans les débats politiques qui visent également à identifier la trajectoire sociale des sociétés en dépit des caractères de nouvelles générations et par le fait qu'elles investies massivement, Dans l'éducation, et pour la restructuration permanente des moyens pédagogiques en faveur d'un système social donné.

Il s'agit de prendre en compte, les attentes contradictoires et parfois homogènes des acteurs sociaux à l'égard des décideurs de politique générale, comme des règles qui définissent l'émergence des plusieurs phénomènes mettant en scène de crise, (tels que les grèves, les bagarres entre élèves, les différentes sanctions...etc.) la tache éventuelle de l'éducation dans sa forme institutionnelle.

L'école se préoccupe de faire face, à l'abondement scolaire et la déviance par la suite des élèves. Donc on devra inclure en étudiant la sphère scolaire, tous les contextes sociaux, pars lesquelles nous sommes attaché dans cette analyse modeste de l'école algérienne.

المخلص:

تقع المؤسسة التعليمية في مركز النسيج الاجتماعي، فضمن التحليل الذي قدمه بورديو هي بمثابة مصنع إعادة إنتاج المجتمع بشتى صورته، إذ تحتل موقع المركز في النقاش السياسي العام حول مصير المجتمع وخصائص الأجيال في ضوء توفير الوسائل البيداغوجية لصالح نظام اجتماعي معطى.

على هذا النحو وعند تلاقي وفي اغلب الأحيان تناقض انتظارات الفاعلين مع الواقع الفعلي لتفاعلات المؤسسة في رزنامة أهل الوصاية، تخلق الكثير من الظواهر المؤسساتية وأهمها انتشار الإضرابات والشجارات والعقوبات المتنوعة، مع ما ينجر عنها من أزمات مثل مشكلة التسرب الدراسي والانحراف الاجتماعي للتلاميذ لحصيلة نهائية.

من منطلق أنه لا يمكن فهم المؤسسة التعليمية إلا في إطار سياقاتها الاجتماعية، ارتبطت مداخلتنا هذه بإبراز العلاقة التفاعلية للمدرسة في بيئتها الاجتماعية الجزائرية.

أولاً: المؤسسة التعليمية واشكالية البيئة الاجتماعية والبيروقراطية للبيئة المحيطة

لعبت التربية دوراً حاسماً في فترات تاريخية مفصلية من حياة الدول والمجتمعات، ففي أوروبا عقب الحرب العالمية، علقت عليها الآمال لتنظيم الحياة الاجتماعية وإزاحة الفوضى في الأخلاق والقيم أما في العالم النامي فكانت مسؤولة على استرجاع قيم السيادة بإخراج جيل يمتاز بالوطنية وبالروح القومية، لكن الأمر الحاسم في مسألة التربية والتعليم من الزاوية السوسولوجية يكمن في اعتبارها وظيفة تنشأ وتتطور ضمن عمل مؤسسات تربوية وبالضبط تعليمية، من هنا تبرز أهمية التفكير في الأصول التنظيمية والتشريعية للمؤسسة التعليمية وأهدافها ضمن منظومة السياسة العامة في المجتمع على اعتبار أن تسيير المجتمع سياسياً واقتصادياً يرتبط جوهرياً بقيمة التربية كمؤسسة في الفلسفة السياسية والاجتماعية لكافة المجتمعات.

على غرار دور كاييم الذي اهتم بالجانب الاجتماعي للتربية بشكل مباشر نجد فيير الذي اهتم بها من جانب بيروقراطي من خلال بحث عقلانية الفعل التربوي، ومحاول فهم نماذج بناء شرعية المناصب الاجتماعية بالعودة لقيمة دبلوم المدرسة، من منطلق هيبة مؤسسات التعليم المختلفة¹.

لذلك فإن منطلق فكرة المؤسسة التعليمية نضجت من الناحية التاريخية استجابة لمشكلات تربوية وليست سوسولوجية، ثم مع تعدد وتعقد المؤسسات التربوية وزيادة جاهيرها تحولت الحاجة لدراستها كنموذج حي يكشف اشتغال المؤسسات وبحث اشكالياتها التنظيمية والبيداغوجية فساهم ذلك ليس في فهم مسارات التربية والتعليم فحسب بل لتحليل اتجاهات تطور البيئة الاجتماعية بشتى أبعادها المادية والثقافية مع فحص مضامينها السياسية.

ثانيا: أنثروبولوجية العمل البيداغوجي للمدرسة:

خلال العلاقة بين المعلم والمتعلم، لا يتضح في الرسالة التعليمية إلا حد المعرفة المنطقية كمنظومة من المعلومات المصرح بها، على أساس اليقين وعادة ما ترسخ العلاقة البيداغوجية بين المتعلم والمعلم على هذه الخلفية الراسخة والمحصورة في الأطر الملموسة للعلم.

يتعدى الانشغال الحديث بمسألة البيداغوجيا، هذه الحدود الكلاسيكية لي طرح المسألة من زاوية جديدة وهي أن وظيفة المعلم، لا تكمن في حصر المتعلم في خانة العالم وإنما في استدعاء البيئة الاجتماعية للمعرفة.

اذ أن الفعل البيداغوجي هو ذو علاقة وطيدة بالأطر الاجتماعية للمعرفة، اجتماعية كانت أم دقيقة (رياضية). حيث يلعب المجتمع دورا كبيرا في توسيع الإيمان بالعلم، حيث من هذا المنطلق، سيصبح لزاما على المعلم في مجتمع المعرفة العامة، إنتاج عناصر جديدة لمشروعية المعرفة العلمية مع الإشارة للجدلية الكامنة بين هذه الأخيرة والمعرفة الاجتماعية العامة.

من الناحية الأنثروبولوجية، فالعلم الحديث هو وليد المجتمع الغربي ولهذا فإن إدخاله في النسق الاجتماعي المتخلف أو الأفريقي، سيتم بفارق اجتماعي يتلخص في أن العلم ليس من الشواهد الأساسية لبناء منظومة الصور والتمثلات حول الواقع والمحيط في رahunه أو تاريخه القريب أو المتوسط.

هناك توجمان أساسيان نظرا للعلاقة الجدلية بين البعد الاجتماعي والعلمي للمعرفة في الإطار البيداغوجي وهما توجه "بياجي" الذي يعتقد أن المعرفة العامة والعالمة يسايران إدراك المتعلم بمبدأ بيداغوجي يعلق على تناقضها والتوجه الثاني يتعلق بعالم النفس النمو "فيتو كسكي" الذي يعتقد بأن مجال المعرفة العامة والعلمية يتضامان في تشكيل التعلم لأن لهما نفس المنطق العام حتى وإن اختلفا في الطبيعة.

إن الطرح الأنثروبولوجي الذي سبق الإشارة له، يلقي مساندة كبيرة بموقفي علمين نفسانيين ذوا توجهات معرفية، مما يجعلنا نعيد التفكير في الشأن البيداغوجي بنظرة

مستجدة تعيد المتعلم لمحيطه المادي والاجتماعي وتجعل من المعلم محركا معرفيا، يعيد تاريخ نشأة الأفكار في إطارها الزماني والمكاني على خلفية البعد الأنثروبولوجي للمعرفة.

في السنوات الأخيرة، تحول البحث في علم النفس البيداغوجيا للأبعاد المعرفية الأنثروبولوجية في بيئة التعلم، الخاصة بالمتعلم في شتى الأطوار التعليمية، للكشف عن الشوائب اللغوية أو التجريبية التي تعطل وتأخر الحس العلمي من ناحية والكشف عن المتغيرات النفسية أو المادية المقاومة للمعرفة العلمية.

أما في مجال اللغة، فقد انتبه العلماء إلى الأهمية المركزية التي تحتلها اللغة الشفوية خاصة في تذليل الصعوبات على المتعلم في كسب وتمثل المعرفة العلمية، إذ يأتي المتعلم إلى قاعة الدرس ولديه رأس مال معرفي عامي، فيه مزيج من المعارف غير العلمية ومعارف علمية غير معروف بناءها المنطقي. لذلك نجد المداخل الحديثة، تلح على ضرورة الشروع في الدرس دون إغفال هذا الرصيد المعرفي والبدء منه في ترسيم معالم المعرفة العلمية على أسس تأخذ متغيرين أساسيين: البعد العمري والبعد الثقافي العام المنمط للإدراك في تلك المرحلة.

ثالثا: أنواع الإدارات المدرسية تحليل بيئة العلاقات والفروق:

تعد تجربة المدرسة أول محطة رسمية يطل من خلالها الفرد على المجتمع بصفته الرسمية، إذ حدد دوركايم ذلك معتبرا أن المدرسة بالنسبة للطفل هي قبل كل شيء ليس تحصيل للمعرفة وإنما هي أول تجربة لحياة المجتمع² فمن خلالها وفي التفاعل مع فاعليها يتعرض الطفل منذ السنوات الأولى، لأولى الرسائل الأخلاقية التي قد تتعرض للكثير من التأثيرات المرتبطة بالنمط الإداري العام للنظام التعليمي والذي ينقسم من الزاوية السوسولوجية الى قسمين:

- العلاقات بين الفاعلين أنفسهم وبينهم وبين إدارتهم وبين الإدارة المدرسية والبيئة الخارجية.

- فلسفة الفوارق وحجمه بين التلاميذ.

المسألة المركزية التي وجب أن تكون محل نقاش واسع ومتعدد الأبعاد الثقافية والاجتماعية، والاقتصادية، تمكن في الناحية البنائية للمدرسة كتنظيم اجتماعي من زاوية البيئة التي تتواجد فيها سواء داخليا أو خارجيا.

ان بناء فعالية الأداء البيداغوجي للمدرسة وإعطاءها قوة النفاذ، يستمد من محيطها الخارجي الذي ينقسم الى:

محيط مادي يتألف من الإمكانيات المادية المناسبة (نقل، نظافة، مرافق، مؤسسات مساعدة....)

محيط اجتماعي يتعلق بالأساس (الأولياء، جماعة الرفاق)

من داخل المؤسسة يتم تركية وتطوير القدرة والفعالية بتكاتف جهود الإدارة المدرسية مبدأ الشفافية كأحد العناصر الأساسية التي تحلل سوسولوجيا، من زاوية أنها تؤدي الى تعميق الانخراط والاندماج وتشكل صمام أمان أمام تولد الشعور بالتهميش بين الموظفين وكذا بين التلاميذ والشفافية المدرسية، هي أخلاق عامة تعتمد على تكافؤ الفرص ووضوح مجالات المنافسة.

إن نشاط المدرسة هو نشاط يخضع دوما للتقويم والتقييم، إذ تشكل هذه المؤسسة مجال ثري للنشاط النسقي داخليا وخارجيا، كما أنها معرضة لقوى الجذب الاجتماعي، الأمر الذي يجعلها تتعدى الطابع البيداغوجي الصرف لتصبح مؤشر مهما عن وضعية المجتمع برمته.

يتضح أن العلاقة بين النسق الداخلي والخارجي للمدرسة هو الإطار الميداني الأنسب للقيام بتحليل سوسولوجي من زاوية:

1. البنية الاجتماعية للأولياء³ في حدود الإمكانيات المتاحة في محيطها، توجه العناية.
2. بمظاهر النقل للمدرسة والتفاعل الاجتماعي مع وظيفتها منذ سنوات التحضيري، اذ تبدأ هذه المرحلة بمشاهد اجتماعية تؤسس بؤرة تحليل تضيف لتوجيه العناية بأهمية وأد الفوارق بين التلاميذ منذ السنوات التحضيرية الأولى.

رابعاً: أنماط الإدارة تبعا لطبيعة العلاقة مع البيئة التنظيمية:

1- الإدارة المركزية

ان درجة ومضمون ارتباط المدرسة كهيئة تنظيمية، بمركزية القرار الإداري من شأنه أن يشكل مرجعا مهما لإقامة التحليل السوسولوجي لها، فبحكم العلاقة الحيوية التي تربط هذه المؤسسة بالبيئة الخارجية، فإنه من العوامل المكبلة لها ذلك الجمود الذي يعتري هذه العلاقة بمؤسساتنا التعليمية. فمثلا لا يجد المدير بالمؤسسة، الحرية الكافية لإبداع النشاط وتطويره خاصة إذا تخلف القرار المركزي على الحركة التنظيمية في المؤسسات، علما أن الفروق التنظيمية واضحة في هذا المجال.

يمكن ذكر على سبيل التأسيس السوسولوجي لهذه المسألة، قضية التحليل البيروقراطي وفق النظرية الفيبرية، التي ساهم من خلالها ماكس في بسط أرضية نقاش علمي ومتخصص، حيث شكلت ملجأ أساسيا للعديد من علماء الاجتماع المعاصرين، لفهم الحركة المدرسية ومستوى مرونتها وكذا فهم مجالات الإخفاق في العلاقات البيداغوجية.

إن من خصائص الإدارة المدرسية المركزية الرتابة والروتين، ما يجعلها مفرغة من الجانب الإبداعي، إضافة لاعتمادها على البعد الكاريزمي في مجال الافراد بالقرار ونقص المشورة مع الشركاء سواء داخليا (معلمين) أو خارجيا (تقانات وأولياء) ما يولد التأويلات المغرضة والحاطئة للتوصيات والمنهجيات التربوية.

2- نمط التنظيم المدرسي المتفتح على المحيط الايكولوجي

يوجد بمقابل النموذج السابق، نمط التنظيم المدرسي، الذي يستجيب في التحليلات السوسولوجية المعاصرة على اشكالية تكافئ الفرص التعليمية والعمل على توطيدها بتبني مشروع المؤسسة، الذي يأخذ في الحسبان المحيط الايكولوجي وإمكانيات التمدد للأطفال بالأحياء السكنية وإمكانيات تسيير ملف الصحة والإطعام بالعودة الى خبرة النشطاء، الذين يمكن لهم فعل الإبداع في ما هو نافعا لدفع التعليم والتنظيم المدرسي، لدرجات أعلى في النجاعة والفعالية و للاستفادة من خبراء الممارسين للفعل التربوي

الحقلي، فان اتخاذ القرارات التربوية يتم بالعودة الى محصلات تقييماتهم الدورية لأداء مختلف المقاطعات التربوية.

هذا النمط الإداري التفاعلي، جاء نتيجة الإشكالات العميقة التي وقعت فيها الإدارات المركزية، في تسيير ملف المدرس أمام مشكلة تحقيق العدالة في توزيع الاستحقاقات التربوية على كافة الفاعلين في مجال التربية. غير أن من الإشكالات المعترضة لهذا النمط من التسيير، هو صعوبة التحكم في مستوى التنسيق بين الإدارات المحلية إضافة الى صعوبة ضبط رزنامة تقييمه للوضع التربوي في عمومها.

خامسا: تنظيم العلاقات المدرسية وخلق البيئة الصالحة لفعل التعلم

تعد العلاقات المدرسية العمودية والأفقية شريان الاستقرار والفعالية التربوية في أي مجتمع ويرتبط ذلك بدرجة نضج العلاقات التنظيمية على أرضية من الوفاق العام بين الفاعلين (مدراء، مفتشين، معلمين، أولياء) في الأهداف وفي جو من الثقة التامة وتجميع الخبرات الكفيلة بضمان مطلب أساسي للتربية والتعليم بصفة خاصة وهو ضمان المساواة التعليمية من خلال تقطيع المؤسسات، الى مقاطعات تعنى بطريقة منهجية بالسياقات والإمكانات المتاحة بكافة المؤسسات التربوية.

ترد في هذا الإطار قضية جد محورية يبنى على أساسها نصيبا كبيرا من التحليل من أصالة الارتباط، بين ما هو سوسيولوجي وما هو تربوي ويظهر ذلك في قضية النقد التقييمي لأداء الجهات الرسمية، فيما هو سياسات واقتصاديات تربوية مع واقع الحال وتطوير التحصيل والتوظيف بالعودة الى الشهادة وغيرها من المعايير.

نجد على سلم العلاقات مسألة نضج الروابط بين أولياء التلاميذ وجمهور المؤسسة الداخلي وهي من العلاقات الخطيرة والعميقة في الوقت نفسه، فهناك من يشجع هذه العلاقة في إطار تبادل النقد والتقييم⁴ كما أن هناك من يعتقد، أن تدعيم هذه العلاقة، من شأنه أن يضعف رسمية المدرسة وقوتها وكان هذا المجال من التحليلات قضية جوهرية

أخذت نصيبا من تحليلات ماكس فيبر في مجال محاولة فهم تنظيم عمل المؤسسة في إطار موضوعي وفي ظل عقلانية الفرد تجعل من قيم النقد والمساواة مشروعا للمجتمع ككل.

سادسا: صعوبات البيئة المدرسية

ينبغي تحليل الإدارة المدرسية، على أساس أن العمل التعليمي في قاعدته عبارة عن خيار إداري قبل أن يكون عمل بيداغوجي، إذ لا يمكن الحديث عن هذا الأخير إلا من خلال ربطه بالسياق البيئي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وكل هذه الأبعاد تعود في نموذجها إلى بيروقراطية القرار الإداري المركزي أو المحلي.

يدفع التفاعل فيما بين هذه الأبعاد الراجعة بالعمل الإداري المدرسي، إلى تأسيس فعل بيداغوجي واضح وفعال والتفاعل هنا هو المحك الأساسي لكل تحليل سوسولوجي في التربية الذي يكون النقد والتقييم إحدى مركباته الأساسية.

1- البيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة

تلعب البيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة أولى التحديات التي وجب العناية بها سوسولوجيا، ذلك أنها تؤثر في الأهداف البيداغوجية بشكل بالغ، ذلك أن التعليم هو خدمة عمومية تفاعلية تتم في المستوى المحلي بشكل أساسي ولذلك فإن ضبط علاقة واضحة مع المحيط هي إحدى المعوقات الكبرى ومن أكبر الصعوبات التي تشكل مسائل أساسية يمكن تقييم الإدارة المدرسية على أساسها ومن معطيات البيئة الاجتماعية النوادي والجمعيات الفعاليات السينمائية والمسرحية والتي يعد موضوعها الناظم تحليلا مسألة العدالة في توزيعها على البيئات المحلية بما يضمن ديناميكية العمل الإداري ونضجه وفعالته⁵.

2- الرسالة المنقولة من طرف المعلمين

يساهم المعلمين في توضيح الواقع وتوظيفه في نقل المعرفة، من خلال إدماج المعرفة في بيئة التلميذ، بما يسمح الحصول عليها وتطويرها مع متغيرات الزمن ومختلف الوضعيات⁶ وهنا يكمن العائق المتعلق بالمعلمين، في مجال مدى استعدادهم للقيام بواجبهم التربوي إضافة

للاوجب التعليمي من خلال تنوع الوضعيات البيداغوجية بالتشارك مع التلاميذ في التفاعل والنشاط مع متغيرات المجتمع ضمن وضعيات بيداغوجية يوفرها المحيط (مسابقات، مسارح، سياحة،....)

3- تأهيل الإداريين للتفاوض والاتصال

من كبرى التحديات، مستوى المؤهلات الاتصالية والتفاوضية للمدراء وإطارات الإدارة المدرسية والتربوية في البيئة المحلية لتسيير الضغط المستمر التابع من تحديات ومطالب البيئة الاجتماعية (نقابات، أولياء التلاميذ، تفاوض التموين والتجهيز.... هذا يعني أن من مطالب الإدارة المدرسية إيجاد ليس مديرين بل خلق مسيرين لموارد بشرية يتمتعون بحس التسيير ضمن ما يطلق عليه مشروع المؤسسة التربوية.

هنا يكمن عائق أساسي وخطير وهو مدى استقلالية المؤسسة التعليمية في انتقاء وتكوين المعلمين، بما يتفق مع إلحاح وضغوط البيئة الخارجية.

الخلاصة:

من القضايا السوسيوولوجية التي وجدت رواجاً في مجال بحث العلاقة بين المدرسة وبيئتها الاجتماعية، قضية العدالة والمساواة في المجتمع، بالرجوع لنمط التمدد للموافق لتنامي الاحساس لدى الأولياء بمصير ابنائهم، لدرجة البحث الحديث عن أحسن المدارس لرسم مصيرهم الدراسي. حيث أصبحت ظاهرة اختيار المدارس محكاً أساسياً للتحليل السوسيوولوجي في ظاهرة تدرس التلاميذ. هذه الظاهرة أثارها Pierre Bourdieu، Christian Baudelot et Roger Establet، Jean-Claude Passerons بان توصلوا أنه تولد لدى الأولياء بمرور الوقت، الانطباع أن المدارس بما تحويه من ممارسات بيداغوجية، تشكل ممراً ذو سمة ثقافية وطبقية وذات مضامين سياسية تضاف للملاحظة العامة وهي انغلاقها امام الأولياء بضعف علاقاتهم مع المعلمين وضعف التواصل معهم.

بناء على ما سبق، أصبح موضوع البيئة الاجتماعية للمدرسة، مجالاً سوسيوولوجياً خصباً للدراسة والبحث العلمي حول ضرورة بناء وتشكيل العلاقة بين هذه البيئة وإثرها

التفاعلي الاقتصادي والسياسي والثقافي وتحليل جملة انتظارات الأولياء من مردود المدرسة وما يعترضها من العوائق المهنية والمنهجية، المتعلقة بالبيئة الداخلية للمؤسسة المدرسية وأهمها ما يقع على كاهل القائمين على التوجيه النفسي والتربوي بالمدارس.

الهوامش:

¹ Nathalie Bulle: Sociologie de l'éducation ;HAL Id : halshs-00137191 ; <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00137191>.Submitted on 17 Mar 2007

² E. Durkheim, L'éducation morale, nouvelle éd., Paris, Alcan, 1938.p

³ Marie DURU-BELLAT ;Agnès VAN ZNTEN: Sociologie de l'école ;3e édition ;ARMOND COLIN.2006.PARIS.P37.

⁴ François Dubet ; Marie Duru-Bellat ; Antoine Vertou : Les sociétés et leur école (Empirisme du diplôme et cohésion sociale ; éd seuil. Paris.2010.p31

⁵ Sous la direction de :Marie DURU-BELLAT ; Agnès VAN ZNTEN : Sociologie du système éducatif(les inégalités scolaire).puf .2009.Paris114.

⁶ J. Ozouf, Nous les maîtres d'école.Paris. Julliard, 1967, p99.